# استعن بالله واعمل

أبو خالد الشامي

الحمد لله القوي المتين، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، له الحمد حمدًا طيبًا مباركًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه. هو الذي أعزّنا بالإسلام ورفعنا به درجات فوق الأمم، فجعلنا أهل التوحيد والدين القويم، وخصّنا بهذا الدين الذي نعتز به في كل زمان ومكان. والصلاة والسلام على نبينا محمد، إمام المتقين وسيد الأولين والآخرين، الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

لقد كانت دعوة الأنبياء على مر العصور دعوةً إلى التوحيد والعمل الدؤوب، دعوةً تقوم على بذل النفس والمال وما دونهما في سبيل الله، دعوةً تسوق الناس إلى الخير وتحمّل الشدائد والمصاعب، دون أن تتزعزع قلوب التابعين أو تضعف عزائمهم. لقد علّمنا الأنبياء والمرسلون وأتباعهم أنّ طريق الحق ليس مفروشًا بالورود، بل هو مليء بالتحديات والابتلاءات التي لا يثبت فيها إلا الصادقون، وأنّ العمل لنصرة دين الله يتطلب شجاعةً لا يعرفها إلا من ذاق حلاوة الإيمان وكمال التوكل على الله.

قال الله تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام، في سياق مواجهته لقومه المشركين: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥]. موقفٌ يعكس قمة التوكل على الله والاعتماد عليه؛ إذ يقف نبي الله وحده في وجه أمّة من المشركين، متحديًا إياهم أن يكيدوا له كيدًا مجتمعين، وواثقًا بأنهم لا يستطيعون ضرّه ما دام الله معه ولن يُسلمه لأعدائه.

إنّ هذه الآيات تُذكرنا بضعف توكلنا على الله، فمن كان رب الناس معه فأنّى يخشى الناس؟ ومهما اشتدّت الصعاب وكثُر الأعداء، فإنّ الله وحده كافٍ عبده، وتلك هي العزة الحقيقية التي لا يعرفها إلا المؤمنون الصادقون: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، قال قتادة: «بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى شِعْبٍ بسُقام ليكسر العزّى، فقال سادنها –وهو قيّمُها–: يا خالد، أنا أحذّركها، إنّ لها شدّة لا يقوم إليها شيء. فمشى إليها خالد بالفأس، فهشّم أنفها» [تفسير الطبري: ٢١/٢٩٤].

لكن، يا للأسف، كم تغيرت أحوالنا اليوم! كم ضعُف إيماننا، وكم خارت هممنا وعزائمنا حتى أصبحت رهينة الخوف من بطش الطغاة! وكم رأينا في زماننا هذا من يتخلف عن نصرة الدين متعذرًا بالظروف الأمنيّة، زاعمًا قلة اليد والحيلة، منتظرًا إلى من تميل الكفّة؛ إلى أولياء الرحمن أم إلى أولياء الشيطان: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

ولم يقِفوا عند هذا الحد؛ فمنهم من زاد على ذلك، محاولًا النيل من عزائم المسلمين، بتثبيطهم وثنْيهم عن أي عمل، وتصغير إمكانياتهم مقابل تضخيم قدرات الكفار، وكأنّما غاب عنه قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال شيخنا فرّج الله عنه: «إنّ من أشد الناس على سالك الطريق، هُم الذين يسدّون أمامه الأبواب، ويُغلقون في وجهه الأمل في التغيير، الذين بضاعتهم تخذيل العاملين والتثبيط. قوم أرعبهم ما وصل إليه الأعداء من قوة ورباط، فجزموا بعدم جدوى العمل في مسارٍ مُصادِم للأنظمة في هذا الزمان، فركنوا إلى ترقيع الواقع المحتوم مستسلمين، فتخطّفتهم الشياطين، وصحّحت لهم العيش دون مناجزة أو حراك متخلّفين» [من صوتية: فضفضة... ماذا قدمت منذ أسلمت؟].

قد زُرع الخوف فينا منذ سنٍّ صغيرة، فتربّينا على مقولة «للحيطان آذان»، وكرّست بيئاتنا الجاهلية هذه المعاني؛ فنُسجت القصص وتداول الناس الحكايات حول مصير من تجرّأ وتكلّم، حتى باتت الشعوب تتوجس من أي كلمة، وترتاب من كل خطوة، وترى الحركة لنصرة الدين مغامرة غير محمودة العواقب. وهكذا خضعت خضوعًا تامًّا لأمر ونهي الطواغيت، واختارت لنفسها «منهج السلامة»: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، فغلّبت جانب الأخذ بالأسباب على جانب التوكل على الله، ولسان حالها أنّ الطاغوت يعلم دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء! فعاشت سنينًا أسيرة لتلك الأوهام، إلى أن هيّأ الله الأسباب، وكسَر هيبة الطاغوت في صدور هذه الشعوب، ولله الحمد، إلا أنه ما زالت رواسب الخوف لدى كثير من المسلمين باقية، ولا بد من مجاهدتها بتهذيب النفوس وتقويتها.

إنّ الإسلام ليس بحاجة إلى النفوس الضعيفة المتخاذلة التي تسقط في أول الطريق؛ إنما هو بحاجة إلى رجال ينهضون به، موقنين بموعودات الله، مدركين أنه مهما عظُمت قوة الطغاة وكثُرت جيوشهم، فإنها واهية أمام جبروت الله. إنّ سنن الله لا تحابي أحدًا، مسلمًا كان أو كافرًا، ومن يبني دينه ودنياه على أحلام ورؤى وخوارق وبشارات، ويقتصر على الدعاء، وينتظر نصرًا من الله دون عناء، فعليه أن يراجع حساباته؛ فإنّ لا شيء في الدنيا يتحقق من غير سعي، وليحذر وعيد ربه ﷻ، القائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٠].

ومن تأمل في ميادين العمل اليوم، يسمع جعجعة وقلّما يرى طحنًا! فهذا يتمسّح بالأسرى والأسيرات، وآخر يتغنى بأمجاد الخلافة، وثالث يتلهف للجهاد، وهُم أبعد ما يكونون عن الإعداد والتضحية في سبيل الله؛ فإن استُحثوا على الإنفاق تنكّبوا، وإن طُلبوا للدعوة تعذّروا، فكيف يثبت هؤلاء غدًا تحت الحديد والنار؟!

عن عبد الله عباس ﵁، قال: «كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أنّ الله دلّنا على أحبّ الأعمال إليه، فنعمل به. فأخبر الله نبيّه أنّ أحب الأعمال إليه إيمانٌ بالله لا شكّ فيه، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقرّوا به. فلمّا نزل الجهاد، كره ذلك أُناس من المؤمنين، وشقّ عليهم أمره، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]» [تفسير الطبري: ٢٣/٣٥٠].

احمل همّ الدين، واعمل لنصرته، وليكن إيمانك بالله سلاحك في وجه الطغاة، واجعل التوكل على الله زادك في مسيرك، وتذكر قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لتعلم أنّ الابتلاء سنة يتميز بها الصادق من الكاذب الدعيّ.